الغنوصية في العهود التاريخية حتى نهاية العهد الساساني

أ.د.طالب منعم حبيب الشمري/ جامعة واسط / كلية التربية

المقدمة:

يعد العراق الموطن الاول لنشوء اقدم المفاهيم العلمية والمعرفية، فعلى هذه الرقعة الجغرافية وضعت اقدم المفاهيم المعرفية، ومنذ زمن موغل في القدم، وقد ترك لنا سكان بلاد الرافدين كما كبيرا من العلوم المعرفية فكانت تمثل اللبنات الاولى لهذه المفاهيم، وعلى الرغم من ان الكثير من الباحثين يشير الى ظهور العلوم والمفاهيم المعرفية الى حضارات مصر واليونان والرومان والسبب في ذلك ان حضارات هذه البلدان حظيت باهتمام كبير من قبل الباحثين والمستشرقين الاوربيين، لكن نصيب حضارة العراق كان منها قليلا، فمن خلال قراءة النصوص الادبية والدينية السومرية والاكدية يتضح للباحثين ان العراقيين القدماء كانوا اول من وضع اسس المعرفة وتطبيقها، وبالرغم من ان معظم هذه الاسس جاء على شكل اساطير دينية، لكن اخراج هذه الاساطير من طابعها الاسطوري يجعلنا نعتقد ان هذه الاراء والافكار التي طرحت لم تكن اراء معرفية بدائية ساذجة، بل انها تمثل معادلات لاصول معرفية سبقت ما جاءت به الحضارات القديمة كاليونانية والرومانية بما يقرب من 25 قرنا من الزمن،

وعلى هذا الاساس نجد ان بدايات المعرفة قد بدأت من العراق حيث كان هناك نوعان من المعرفة هما المعرفة العلمية الخاصة بالعلوم التطبيقية كالرياضيات والفلك والفيزياء والكيمياء الى غير ذلك من هذه العلوم، والمعرفة الروحية (العقائدية) ذات الصلة بالمعتقدات الدينية تلك المعرفة التي ارتبطت بالتساؤلات الكبرى للعقل الانساني والتي حاول ان يجيب عنها الانسان، ومن بين هذه التساؤلات ما هي الطبيعة؟ وما هو الانسان؟ ماالله؟ ما المجتمع؟ لماذا خلق الانسان؟ ما هو الموت؟ ولماذا يموت الانسان؟

ان كل هذه التساؤلات كانت بحاجة الى اجابة ولا يمكن لجميع افراد المجتمع الاجابة عليها، وبالنتيجة فان البحث في هذه التساؤلات يستلزم وجود من يجيب عنها. فجاءت اجابة سكان بلاد الرافدين من خلال الاساطير والملاحم واصدار تعليمات من قبل هؤلاء الاشخاص الذين يطلق عليهم بالعراقيين (اصحاب المعرفة) ويضعونها بين ايدي العموم للوقوف على حقيقة الاجابة لتلك التساؤلات.

جاءت فكرة البحث في تفاصيل هذا العنوان بعد قراءة مقالة للباحث فراس السواح حملت عنوان (الشيطان كخالق للعالم-مقدمة في الغنوصية-) وبعد التمعن في هذه المقالة وما احتوته من معلومات تاريخية تؤكد على بداية المعرفة في اليونان القديمة والرومان ومن اجل وضع الحقائق التاريخية بين ايدي القراء اخترت عنوان البحث (الغنوصية في العهود التاريخية القديمة حتى نهاية العهد الساساني) ورغم قلة المصادر التاريخية لكن كانت حقيقة الامر هو المجازفة والاستمرار في البحث، فتناول هذا

البحث مفهوم الغنوصية وجذورها الاولى في القواميس السومرية والاكدية ثم ممارسة السومريين والاكديين والبابليين لمفهوم الغنوصية من خلالها مدلولها العلمي واللغوي مع التأكيد على بعض النصوص القديمة ، ثم تناول الغنوصية عند اليونان والرومان والديانة اليهودية والمسيحية والتي تمثل تطور هذا المفهوم الى مفهوم عقائدي له مدرسته الخاصة، وقد تم الاعتماد على عدد من المصادر والمراجع التي تمت الاشارة اليها في نهاية البحث مع ذكر اهم الاستنتاجات التي تم التوصل اليها من خلال البحث.

الغنوصية (اللغة والاصطلاح):

الغنوصية (Gnosis) لفظة يونانية تعني المعرفة[1]، وتعني المعرفة الباطنية لعالم ما فوق الحس[2]، وهي نزعة دينية ادعى اتباعها بامتلاكهم المعرفة السامية الكلية[3]، وقد تم تدوين هذا المصطلح باللغة الانكليزية تحت كلمة (Gnosticism) ويقرأ في اللغة العربية تحت مصطلح (الغنوستيكوسية) ودلالاته من الناحية اللغوية المعرفة المطلقة التي تسمح بحل جميع المشاكل المتعلقة بالله والانسان والعالم وهي معرفة قائمة على البديهية، في جوهرها نشأت في العصر الهلنستي وتذهب في عبادتها الى ان الخلاص يتم عن طريق المعرفة اكثر مما يتم عن طريق الايمان[4].

اما المدلولات الاصطلاحية لهذه الكلمة فتعني المعرفة الروحية او اللاهوتية[5]، ومن المعاني الاخرى للغنوصية انها تعني المعرفة الباطنية لعالم ما فوق الحس، اي انها ذات نزعة فلسفية تعني المعرفة المطلقة التي تسمح بحل جميع المشاكل المتعلقة بالانسان وقائمة على اساس البديهة، ولم يقتصر الباحثون على اعطاء معنى اصطلاحيا واحدا لمفهوم الغنوصية، فالمختصين في مجال الادب يفهمون الغنوصية على انها معرفة الانسان لنفسه بوصفه الها، والبعض الاخر يذهب الى تفسيرها بانها المعرفة الملهمة او المعرفة المتاحة عن طريق الاستنباط والحدس لا عن طريق البحث العقلاني[6].

ان المفهوم العام للغنوصية وبحسب نظرة اصحاب علم العرفان وخصوصا في الديانات المسيحية تعني لديهم مصطلح الخلاص وكل مفاهيمها وتصوراتها الكونية تتلخص في الطقوس والعبادات الشكلانية، وان الخلاص الغنوصي لم يأت من خلال الطقوس والشعائر فحسب يجب ان يرافق ذلك خلاص او انعتاق، وبالنتيجة فان مثل هذه الافكار دفعت بعضهم الى القول بأن المقصود بالعرفان (اعرف نفسك)[7]. وقد عبر الباحث بارندر جفري بنفس المفهوم بقوله: ((ان الخلاص يتم عن طريق المعرفة اكثر مما يتم عن طريق الايمان))[8].

من خلال ما تم عرضه عن مفهوم الغنوصية يدفع الباحث الى التساؤل متى بدأ اطلاق مفهوم المعرفة ومعرفة الانسان لنفسه وعلاقته بالالهة؟ وهل بدأت مع بداية الحضارة اليونانية؟

ان الاجابة على مثل هذه التساؤلات لم تعد امرا صعبا فمن خلال الرجوع الى قواميس اللغة السومرية والاكدية نجد استعمال المصطلح وتفسيره في كثير من النصوص المسمارية، فقد ورد

مصطلح معرفة في اللغة السومرية (Ni–zu) ويقابله في اللغة الاكدية ولهجاتها (ihzu) التي تعني علم او معرفة[9]، ووردت لفظة (Lu HAL) وتعني الرجل العراف ويقابها في اللغة الاكدية (baru) وكلمة (barutu) المعرفة، وكذلك تم ذكر كلمة (billu da) التي تعني القوانين الدينية[10]، والى جانب هذه المصطلحات وردت في قواميس اللغة مصطلحات اخرى ترتبط بمفاهيم المصطلحات اعلاه مثل (LU U) التي تعني الحكيم والتي يقابلها في اللغة السومرية (La–GAL) او (ZU) التي تعطي المعنى نفسه، وكذلك (Mu–du) العالم او الحكيم، ويقابلها بالسومرية (GAL–zu)[11].

ان الشائع بين اوساط الباحثين المتخصصين في دراسة الافكار والمعتقدات الدينية لدى الشعوب القديمة اكدوا على ان سكان بلاد الرافدين كان لديهم اهتماما كبيرا بالدين والطقوس والشعائر الدينية، وعلى الرغم من ان الرائج لدى اكثر الناس ان المصريين القدماء هم اكثر الناس تدينا، لكن العراقيين القدماء اهتموا اهتماما كبيرا بالدين واكد رجال الدين في العراق القديم من كهنة وعرافين على ان سبب التدين يعود الى عاملين اساسيين هما السببية والغائية اللذان يشكلان عاملين ضروريين في ايجاد العراف(الذي تقع عليه مسؤولية تفسير الظواهر وايجاد المبرر لحدوثها) وربما يكون هذا كاهنا مختصا بذلك وربما يكون عرافا يعتمد طرقا شتى في اصدار تعليماته وتفسير الظواهر التي تحدث وبالتالي عندما نستعرض النصوص المسمارية نجد اسماء الكثير من الاشخاص الذين مارسوا الكهانة والعرافة والعرفان وفتحوا ابواب المعرفة امام الاخرين، وان هذا يؤصل الجذور الاولى للغنوصية على انها جذور تاريخية عراقية قديمة نبعت من العراق القديم منذ اوائل العصر السومري القديم (3000-2371ق.م).

ان ذهنية العراقي القديم لا تقبل بما هو مسلم به كأمر واقع فقط وانما تثير حوله الاسئلة والحوار في الجانب الديني وكل ذلك دفع الى ظهور العراف والمفسر وعلى هذا الاساس جاء الكاهن ليكون الشخصية المركزية في الحياة الدينية وادى ذلك الى ان تأخذ المعرفة الروحية مظهرا دينيا يعتمد على النص المقدس الذي يرتبط مع الاله عن طريق الاتصال المباشر بالاله او من خلال وسائط روحانية[12]، وعلى سبيل المثال لا الحصر نجد ان اصحاب المعرفة في العراق القديم اكدوا على ان ((السماء يسيطر عليها انو والهواء والارض يسيطر عليها انليل والبحار والمحيطات يسيطر عليها أنكي))[13]، ان مثل هذه المعرفة والرأي المطروح لم يأت من خلال كتاب مقدس وانما جاء من خلال الكهنة ليوضحوا ذلك الى عموم المجتمع، وبالتالي فان مثل هذا النص يؤكد لنا وجود المعرفة العقائدية منذ وقت مبكر في العراق القديم.

لقد اوردنا في الاسطر اعلاه مسألة وجود العرافين في العراق القديم وغالبية هؤلاء كانوا من الكهنة وهم يمثلون رجالات الدين في العراق القديم، وبالتالي لا بد من وجود شروط للعرافين كي

يمارسوا دورهم، ومن بين هذه اللشروط ان يكون ذا معرفة اضافة الى اضطلاعه بالموضوع المراد معرفته، وطالما ان الموضوع يتركز على الجانب الديني فقط فان افضل رجال المعرفة في هذا الجانب هم الكهنة يضاف الى ذلك ان يكون هناك موضوع معروف مع المام الكاهن بالوسائل التي تساعد على المعرفة[14]. اضافة الى ما يكتسبه من خبرة خلال مدة عمله في المعبد او القصر. ويجب ان يكون هذا الشخص كفوء ليكون عالما عرفانيا او انه يمتلك المعرفة لتفسير التعاليم الدينية ويقوم بهذه المهنة المهمة الكهنة الذين اكدوا على ((ان الحياة عبارة عن تجربة دينية موحدة))[15]، ومن اجل اثبات ممارسة السومريين المعرفة من خلال العرافين نورد النص الاتي الذي يمثل تعاليم دينية سومرية ((اعبد الهك كل يوم، قدم له القرابين والصلوات، التي تتم على اكمل وجه مع تقديم البخور، قدم قربانك طائعا لالهك، لأن ذلك يتناسب مع الاله، قدم له الصلاة والضراعة والسجود كل يوم، سوف تثاب على ما تفعل عندها يكون بينك وبين الاله اتصال، ان التبجيل يولد الحظوة والقربان يطيل الحياة والصلاة تكفر الذنب))[16].

ان هذا النص يمثل مزمارا سومريا وضعه اصحاب المعرفة لعامة الناس للعمل بموجبه، ولا يمكن ان يكون هذا النص نتاج شخص عادي بل انه كان نتاج اصحاب المعرفة السومريين، وهو اشبه ما يكون بالتعاليم الدينية والذين يشابهون في عملهم رجال الغنوصية.

اشرنا الى ان الغنوصية تعني المعرفة ومبدأها الاساس هو ان الخلاص يتم عن طريق المعرفة اكثر مما يتم بالايمان، وان مثل هذا المبدأ كان قائما في الفكر العراقي القديم، حيث ان التساؤلات التي طرحها العراقيون القدماء وحاولوا الاجابة عليها وكان من بين الكم الهائل من التساؤلات هو ما الذي يبدو عليه الواقع؟ ما الذي تبدو عليه معرفتنا بالواقع؟ ما المعروف عن معرفتنا؟ اذن المعرفة في العراق القديم هي علم خاص يبحث في المشكلات المطروحة والدين وشكله بالنسبة للانسان ليس كدين وانما التساؤل عن علل الاشياء ثم الاجابة عليها وليس بمقدور كل شخص ان يجيب على ذلك بل كان هناك فئة خاصة هم العرفانيون من الكهنة الذين يقومون بتفسير الاشياء وصياغتها على شكل تعاليم برزت في الديانة السومرية والاكدية والبابلية والاشورية. ويمكن ان يكون دور هؤلاء مشابها لدور مارقيون الذي يعده البعض مؤسس الغنوصية.

في حركة التطور البشري تكون هناك طريقة واحدة يتبعها هذا التطور وتتجسد هذه الطريقة بايجاد رابطة بين حركات العالم الخارجي وهذا يدفع الى تفسير بواعثها على وفق الجارب العلمية المألوفة لدى الانسان، بواعث الحوادث والقدرة على التنبؤ بمخطط سيرها والاستعانة بقوى المعرفة للوصول الى الهدف المنشود[17].ويتم ذلك بعد الحصول على الخبرات الفعليةوكشف لقوانين الطبيعة الكبرى بعيدا عن ظواهرها الغيبية وان اتباع مثل هذا الاسلوب يقلص لديه عامل الغيب، واصبح الانسان اقوى على المثابرة في البحث عن العلل والاسباب واكثر ثقة بالنفس لنفي العجز[18].

اذن تأكد لدينا ان المعرفة تمت مزاولتها في العراق القديم منذ البدايات الاولى للعهود التاريخية، وهنا لا بد من الاشارة الى دوافع ظهور المعرفة وانواعها، فعلى صعيد الدوافع نجد ان المعاناة

واسبابها ومحاولة التخلص منها والقضاء عليها كانت عوامل رئيسة، فالمعاناة التي مر بها السومريين وبناة حضارة العراق الاخرين في الجانب الديني دفعتهم الى البحث في اسباب معاناتهم الدينية والخلاص منها، وكان من ابرز اسباب هذه المعاناة الموت الذي اخاف الانسان ودفع بالكثير من اصحاب المعرفة الى البحث عن سبل الخلاص من هذا الشبح الذي نسجت حوله الكثير من الاساطير والملاحم امثال ملحمة كلكامش وغيرها، وان اصحاب المعرفة اكدوا ان الموت لا يمكن التخلص منه ولكن استمرار تقديم القرابين من اجل الميت كانت السبيل الوحيد لراحة النفس عند الانسان، وكذلك الحال بالنسبة لظواهر الطبيعة كالفيضانات والامراض، فان اصحاب المعرفة قد وضعوا لها حلولا من خلال القيام بالاعمال التعبدية واقامة الطقوس والشعائر للالهة حيث ان تلك الطقوس والشعائر التي يقومون بها من الممكن ان ترضي الالهة وينجو الانسان مما يرعبه[19]. والاشراف على هذه الطقوس والشعائر في معظم الاحيان يكون تحت اشراف رجال دين مختصين يخضع المجتمع لتعاليمهم وهذا جزء من مبدأ الغنوصية.

اما انواع المعرفة فيمكن ان تكون هناك معرفة حقيقية ومعرفة وهمية والمعرفة الحقيقية ترتبط بالعلم والمعرفة الوهمية ادراك المجردات والمعرفة الحقيقية ترتقي بالانسان الى معرفة الوجود الشامل الجامع لكل الوجود[20]. وفيما يتعلق بالمعرفة بالجانب الديني يكون هناك نوعان من المعرفة هما المعرفة الايحائية من خلال ما توحي به الالهة الى الشخص والنوع الثاني هي المعرفة الالهامية التي يتم التوصل اليها من خلال نشاط العقل البشري بطريقة الاستدلال او الاستنتاج وقد برز عدد كبير من الكهنة الذين اختصوا بالعمل ضمن هذه المعرفة مثل كهنة البارو[21].

ان النتاجات الاسطورية في العراق القديم كانت عبارة عن اداة للمعرفة والكشف اداة المعرفة والفهم فعبر عنها الكاتب بطرق شتى وعالج موضوعات متعددة وظهر من خلالها اثبات الانسان في محاولاته الاولى اكتشاف مركزه في الكون والبيئة والمجتمع واجاب ان الكون فيه قوى خفية لا يمكن السيطرة عليها واكد في مقولته ((لا وجود لكل شيء الا الالهة)) وهذا يمثل فكر معرفي عراقي قديم مقارب في الشبه مع افكار الغنوصية اليونانية ومن بعدها اليهودية والمسيحية.

ان ما يؤكد الظهور الاولي للمعرفة في العراق القديم هو ان الانسان حينما خلق بدأ يجول في بصره وبصيرته في هذا الكون واخذ يفكر فيه ثم اخذ يلمس جسده ويتأمل في ماهيته وكان يتطلع الى ادراك ما وراء الطبيعة المخلوقة، وهذا اول من بدأه العراقيون القدماء ومحاولة الانسان الاجابة على ذلك فانه يمثل البداية الاولى للمعرفة ولا يرتبط ظهور المعرفة باليونان كما يعتقد البعض، وان سكان العراق القدماء كانوا اول من اوجد جذور المعرفة عنتد محاولتهم تفسير الاشياء عن طريق استخدام العرفان الحدسي التجريبي الحاصل من اتحاد العارف بالمعروف، والدليل على وضع سكان العراق القدماء جذور المعرفة ننقل النص الاتي ((من اجل اقامة طقوس العرافة وتعاليمها، جلبتها الى الكيبادر (البيت المغلق))) وهذا النص يعطينا الدليل الواضح على ممارسة العرافة ولا يمكن ان يقوم بذلك الا من يمتلك المعرفة كما ان العراقيين القدماء قد ميزوا بين التفكير العقلي الخطي وبين الخبرة الداخلية

الحدسية التي تعود الى المعرفة وكان من اهم الصفات التي يجب توافرها فيمن يزاول هذا النوع من المعرفة ان يعرف نفسه اولا لكي يتمكن من وضع التعاليم المعرفية وتوضيحها وغالبية هؤلاء هم من الكهنة ورجال الدين.

كان رجالات الغنوصية عند اليونان يرون ان المادة عنصر شر وبالمحصلة النهائية فان الجسد البشري شريرا وهذا ما دفع بالغوصيين اليونان ومن بعدهم الغنوصيين المسيح نكرانهم لعقيدة القيامة والتجسيد[22]، والتأكيد على ان من يمتلك المعرفة المخلصة هو ارفع من ان تسري عليه القوانين الاخلاقية التي ليست الا من وضع خالق سفلي لا سماوي[23].

لقد اشرنا سابقا الى البدايات الاولى للغنوصية بوصفها معبرة عن مفهوم المعرفة الى بدايات العهود التاريخية، لكن ظهور الغنوصية كعقيدة دينية واضحة المعالم ما زالت بداياتها من الامور المختلف عليها بين اوساط الباحثين فبالرغم من الالمام الكبير بمبادئ الغنوصية وتحديد مفاهيمها، لكن تحديد البداية الاولى غير متفق عليها، فالبعض يعتقد ان البداية الاولى لظهور الغنوصية الناضجة قد بدأت مع القرن الاول الميلادي[24]، حيث ينسبون نشأتها الى مارقيون المولود في منطقة بونثوس على البحر الاسود في اواخر القرن الاول الميلادي، حيث صاغ هذا الشاب عقيدته الخاصة المتلونة بلون الغنوصية، وعمل على تنظيم كنيسة خاصة به في عام 144م، حيث شكلت هذه الكنيسة اخطر تهديد في حرمانه من الجديد والعهد القديم وكان معارضا لطريقة روما[25].

ان الافكار التي جاء بها مارقيون كانت قائمة على مبدأ الفصل التام بين العهد الاب السماوي القديم لجعله متلائما مع العقيدة الجديدة واله العهد القديم يهوه حيث بدل فكر المسيحية بتأكيده بالقول (ليس المسيحية في تأويل العهد اليوناني الذي صنع العالم المادي الناقص والذي بشر به يسوع بل هو الاله الخالق)، ويرفض طاعة يسوع لكونه لا يستحق الطاعة والعبادة ويدعوا مارقيون الى عبادة الاله المتعالي ويعتقد المسيحون القويمون ان الله الحق هو يسوع المسيح الذي لا يتدخل في احداث العالم، لأنه صانعه ولم يفعل الا ارسال ابنه المجهول وهو اصل الانسان الذي احبه واراد له الخلاص[26]، وقد هبط من السماء الى هذا العالم السقيم والتافه وصلب وظن بعض اليهود المسيح القومي المنتظر[27].

لقد كان لظهور كينيستين في هذا الوقت المبكر هما الكنيسة القويمة التي كانت مفتوحة للجميع وبلا شروط سوى الاعتماد بالماء والنطق بقانون الايمان والمشاركة في العبادة فان الكنيسة الغنوصية التي اسسها مارقيون كانت مفتوحة للنخبة وتقوم عضويتها على تقييم النضج الروحي للحرير الذي يتوجب عليه اظهار الشواهد الملموسة مع قابلية لتلقي الاسرار مركزين في ذلك على قول يسوع (من ثمارهم تعرفونهم)[28].

اذا كان تعريف الغنوصية بانها المعرفة او العرفان والبحث في طريق الخلاص فاننا نجد في مثل الافكار كانت سائدة لدى معظم الشعوب القديمة وعلى سبيل المثال لا الحصر انها كانت منتشرة في بابل ويشار اليها بكلمة المغتسلة وهؤلاء اقدم ما جاءت به اراء الكنيسة القويمة التي اشترطت

الاعتماد بالماء والنطق بقانون الايمان وكانت تطابق اصول المانوية في ايران وربما يمثل الصابئة في الوقت الحاضر امتدادا لهؤلاء[29]. واذا كانت هناك ثكة افكار اخرى تبناها اصحاب ودعاة الغنوصية والمتمثلة بالنجاة والتخلص فان العراقيين القدماء والمصريين واليونانيين كانت لديهم مثل هذه الافكار، لكنها لم تتبلور على شكل افكار مطابقة لأفكار الغنوصية، ولم يكن هناك رجال غنوصيون، ولكن كان هناك رجال دين (كهنة) وعرافين يصدرون تعليماتهم وارشاداتهم للجميع ودعوتهم لتطبيقها[30].

كانت المذاهب الغنوصية متنوعة حيث يشير ابريانوس180م انه استطاع ان يقول كانت هناك العديد من نظم الخلاص فمثلما كان هناك غنوصيون كلهم اشتركوا في نفس المبدأ القائم على اساس ان العالم المادي شر بينما عالم الارواح خير، وقد ادى هذا الاعتقاد الى تفسير ان العالمين يدينان بوجودهما الى خالقين مختلفين خالق العالم المادي (الكون) (المادي رب الكتاب المقدس العبري) كونه ندا لاله الحقيقة العليا (ابون).

ان هذا الازدواج الكوني قد ورد مرات مختلفة في القصص الاسطورية في المناهج الخاصة بسلسلة القرابة التي اعتمد بعضها على موضوعات في الكتاب الديني العبري على الرغم من ان هذا الكتاب بحد ذاته كان مرفوضا بسبب وجهة النظر الايجابية للنظام المخلوق[31]. اما اتباع فالينتينيوس 140م فقد شكلو المذهب الثاني من مذاهب الغنوصية وكانت ارائهم لم تتباين مع ارثودوكية الكنيسة وكان هناك معارضين لها بشكل مباشر لها في الاخلاق واللاهوت على حد سواءوكان هؤلاء من اتباع مذهب كاربوكرينس الذين ادعوا انهم مارسوا المشاركة في الزوجات والممتلكات[32].

ان بيان الحقيقة التي تبنتها الكنيسة القويمة(الكنيسة الكونية) كما يسميها البعض والقائم على اساس ان هذه الكنيسة وحدها التي تقدم المنظومة الكاملة للعقائد الخاصة بالخلاص وخارجها لا يوجد خلاص[33]. نجد ان الغنوصية وعلى لسان مؤلف نص (بيان الحقيقة) بالقول: (ان طاعة رجال الدين تسلم المؤمن الى قيادة عمياء تستمد سلطتها من اله العهد القديم لا من الله الحق وتربطهم الى ايديولوجيا سقيمة وطقوس ساذجة مثل طقس المناولة ذي الطابع السحري وطقس العماء الذي يدعي ضمان الخلاص لهم ولكن للخلاص طريق اكثر مشقة من ذلك وهو يقوم على معرفة النفس ومعرفة الله في الداخل وينتهي بالاستنارة التي تليها القيامة الروحية في هذا العالم لا بعد الموت)[34].

في المدة التي انتشرت فيها المسيحية في مصر وبعض بلدان الشرق الادنى القديم نجد ان الجماعات الغنوصية تحولت الى المسيحية وقد نتج عن تحول هذه الجماعات نشوء تيار مسيحي غنوصي عبر عن عقيدته من خلال ادبيات غنوصية غزيرة تم تصنيفها فيما بعد بين الاناجيل المتحولة وهذه العقيدة لا ترتكز على الايمان بل على العرفان فعلى سبيل المثال ننقل قول يسوع في الاناجيل (من آمن وان مات فسيحيا انا هو الطريق والحياة ليس احد يأتي الى الاب الابي) في حين ورد في الادبيات الغنوصية (ان المسيح ليس وسيطا للخلاص بل هو رمز لمعرفة الحقيقة بالكدح الشخصي)[35]،

وفي انجيل توما الغنوصي يقول التلاميذ ليسوع: (ارنا المكان الذي انت فيه لأنه من الضروري ان نبحث عنه)، وقد اجابهم (من له اذنان فليسمع هناك نور داخل انسان، النور من شأنه ان يضيء العالم واذا لم يضئ فلا شيء سوى الظلمة)[36].

وفي الختام لا بد لنا ان نقول ان الغنوصية كانت بداياتها الاولى في الشرق القديم وبقيت جذورها في اسيا وتطورت هذه الجذور عند كرينطوس وفي انطاكيا تطورت مع منا ندروس ثم انتقلت الى وادي النيل ووجدت لها نصوصا في نجع حمادي ثم تطورت عقائد الغنوصية في مناطق مختلفة من الشرق القديم وعبر ازمان متعاقبة وقد اثرت الافكار والمعتقدات الغنوصية في الديانات الايرانية بشكل كبير واصبحت هذه الديانات تعرف بالغنوصية المانوية التي تحولت الى ديانة مؤسساتية عند المانيين في منتصف القرن الثالث الميلادي لكن الغنوصية في المناطق والديانات الاخرى بقيت اشبه ما يكون بالفرق التي تتبع كل واحدة منها معلما روحانيا. وينطبق ذلك على ديانة الساسانيين الذين تأثرت عقيدتهم بالافكار الغنوصية.

ان ابرز ما تبنته الغنوصية من افكار ومعتقدات هي ان الله ليس هو الذي خلق الكون بل ان هناك كائن اخر يجهل الاله الحقيقي وان يسوع المسيح هو النبي الذي تنبأ به موسى (عليه السلام) لكنه ليس ابن الله بل ابن مريم وبالتالي فان سر الثالوث الاقدس ليس له اي اساس.

الخلاصة:

1-ان جذور فكرة الغنوصية جذور موغلة في القدم ولا ترتبط بالديانة اليهودية او المسيحية طالما انها تعني المعرفة وتعني البحث عن الخلاص وهناك الكثير من الادلة التي تثبت ذلك حيث تمت الاشارة الى بعضها ونورد هنا اشارة اخرى لتأكيد قدمها فطالما ان الغنوصية تعتقد ان الانسان الاول صورته صورة نصف اله وهذا الاعتقاد مستعار من الافكار المعرفية التي وردت في اساطير العراق القديم وخصوصا ما ورد في ملحمة كلكامش التي صورته بأن ثلثاه اله والثلث الاخير بشر، كما ان الغنوصيين انفسهم ارجعوا جذورها الى الالف الثالث قبل الميلاد عندما اكدوا على ان نصف الاله هذا هو ادم غير المسيح الازلي او انه حل في ادم ثم المسيح.

2-ان وجود لفظة (ni–zu) السومرية وكلمة (ihzu) في اللغة الاكدية والتي تعني المعرفة تؤكد لنا انتشار طريقة المعرفة الروحية في الافكار والمعتقدات الدينية العراقية القديمةوالمصرية، ولذلك نستطيع ان نقول ان من يرجع الغنوصية الى اليونان قد جانب الصواب كثيرا حيث ان معظم ما جاءت به الفلسفة اليونانية قد توحد مع الاديان الشرقية ونتج عن ذلك تشابك كثير ومتنوع فاذا اردنا ان نرجع ذلك الى الاصول نجد ان حالة التشابك بين الاراء والمعتقدات الارية وامتزاجها مع الاراء والمعتقدات الجزرية نجد ان كل واحدة منها قد اثرت بالاخرى وكانت منطقة الامتزاج هي المناطق

الارمينية، وقد انعكس هذا الامتزاج على استمرار التأثير الامتدادي بالافكار ومعتقدات بلاد الرافدين ووادي النيل في الافكار اليونانية.

3-ان تطوير الشعوب لحضارتها ومن بينها المعتقدات الدينية نجد ان بداياتها الاولى افكارا اولية تطرح ثم تأخذ بالتطور التدريجي حتى مرحلة النضج وهذا ما مرت به المعتقدات الغنوصية عبر الحقب الزمنية المتعاقبة.

4-ان الفكرة الاساسية التي بنيت عليها الغنوصية في فكرها تؤكد على المزج بين النور الذي يمثل الروح ويمثل دنياها في حين تجسد دنيا الظلمات بالمادة والتي تتمثل بالجسد ومثل هذه الثنائية في الفكر الغنوصي كانت شائعة في حضارة بلاد الرافدين الذين اكدوا على ان الجسد يذهب الى العالم الاسفل عالم الظلمات في حين ان الروح تذهب الى عالم النور وان ذلك يأتي من خلال خدمة الالهة وطاعتها ويتوقف على ما يقدم من قرابين من قبل ابناء المتوفى.

5-ان الفكرة الاساسية للغنوصية محاولة تفسير الشر كما جاء في اراء افلاطون والتخلص منه، ولكن جذور هذه الفكرة كانت شائعة في معتقدات العراق القديم وبذل العراقيون والكهنة ورجال الدين في العراق القديم الجهود في ايجاد تعاليم دينية وجهت المجتمع للتخلص من الشر وجاء ذلك من خلال الرقي والتعاويذ اضافة الى تعاليم واناشيد الصلاة والتعزيم وغير ذلك.

6-ان تعاليم الغنوصية ظهرت بشكل واضح في الديانة اليهودية ثم المسيحية واصبحت عقائد الغنوصية عبارة عن مذاهب ترتبط بكنيسة خاصة لها ويقوم رجال الكنيسة باصدار تعاليم الى كل من يؤمن بهذه الافكار التي تصب جميعها في محاولة الانسان الخلاص بأي طريق وليس الاقتصار على طريق الايمان فقط.

الهوامش والمصادر

[1] - Encyclopadia Britanni,vo xii,p156.

[2] - بارندر،جفري، المعتقدات الدينية لدى الشعوب القديمة، ترجمة امام عبد الفتاح، مكتبة مدبولي، القاهرة،1996،ص438.

[3] - هنري، سي عبودي، معجم الحضارات السامية،ط2، لبنان،2009، ص638.

[4] - برندر، جفري، المصدر السابق، 438.

[5] - Gosl ing,J.C.B.,Landon and boston routh legeand kegan,1975, p22. كذلك النشار، مصطفى حسن، فكرة الالوهية عند افلاطون ، بيروت، 2008، ص177.

[6] - الرويلي، ميجان، البازعي، سعيد، دليل الناقد الادبي، بيروت، 2005، ص198.

[7] - السواح، فراس، الشيطان كخالق للعالم(مقدمة في الغنوصية)، مقالة في الانترنت.

[8] - بارندر،جفري، المصدر السابق، ص438.

[9] - لابات، رينيه، قاموس اللغات القديمة، ترجمة عامر سليمان واخرون، بغداد، ص338.

[10] - المصدر نفسه، ص135.

[11] - المصدر نفسه، ص135.

[12] - السواح، فراس، موسوعة الاديان، بيروت، 2007، ص55.

[13] - مظهر، سليمان، قصة الديانات، القاهرة، 1995، ص71.

[14] - كولر، جون، الفكر الشرقي القديم، عالم المعرفة، الكويت، 1995، ص199.

[15] - بارندر، جفري، المصدر السابق، ص57.

[16] - المصدر نفسه، ص50.

[17] - الحوراني، يوسف، الانسان والحضارة، 1972، ص11.
[18] - المصدر نفسه، ص12.
[19] - للمزيد من المعلومات ينظر: كولر، جون، المصدر السابق،
[20] - النشار، مصطفى حسن، فكرة الالوهية عند افلاطون، المصدر السابق، بيروت، 2008، ص171.
[21] - ميفولنسكي، اسرار الالهة والديانات، بيروت، ص26.، وعن الكهنة واصنافهم وواجباتهم ينظر: حسين، ليث مجيد،الكاهن في العصر البابلي القديم، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الاداب، جامعة بغداد، 1991، ص74 وما بعدها.
[22] - هنري، سي عبودي، المصدر السابق، ص 638.
[23] - المصدر نفسه، ص638.
[24] - السواحخ، فراس، طريق اخوان الصفا المدخل الى الغنوصيةالاسلامية، دمشق، 2008، ص27.
[25] - السواح، فراس، الشيطان كخالق للعالم، المصدر السابق
[26] - المصدر نفسه
[27] - المصدر نفسه
[28] - السواح، فراس، الوجه الاخر للمسيح، موقف يسوع من اليهود والعهد القديم، دمشق، 4-2، ص64.
[29] - كريستيفن، اوثر، ايران في عهد الساسانيين، ترجمة يحيى الخشاب، بيروت، 1982، ص29، كذلك ينظر:
Pallis,s.A.Die mand aische religion, 1889
[30] - للمزيد من المعلومات عن افكار الخلاص في المعتقدات الدينية القديمة ينظر: معن، رنا كاظم، المنقذ والمخلص في المعتقدات الدينية القديمة العراق وايران انموذجا، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة واسط، 2012.
[31] - هينلسبن، جون، ر، معجم الاديان، ص274.
[32] - المصدر نفسه، ص274.
[33] - السواح، فراس، الوجه الاخر للمسيح، المصدر السابق، ص65.
[34] - المصدر نفسه، ص65.
[35] - السواح، فراس، طريق اخوان الصفا، المصدر السابق، ص28.
[36] - المصدر نفسه، ص28.